كيف تلين لغة الضاد للتعبير عن لطائف الفكر ومشاغل العصر ؟

عمرو أحمد عمرو
وحدة الترجمة العربية/اليونيدو — فينا

عشرات من التساؤلات تقفز إلى أذهان المهتمين بلغة الضاد عما ينبغي الاضطلاع به لمسايرة الزمن وركب التقدم في عالمنا المعاصر.

- كيف نسبح في تيار الحضارة التكنولوجية ، ونوجه تيار الحياة الثقافية إلى حيث نشاء ، لا إلى حيث تقذف بنا الأمواج ؟
- كيف نمسك بالزمام ، بعيدا عن الضرب في مجاهل التخمين لندرك روح التطوّر ؟
- كيف ننطلق من الواقع إلى الممكن ، مرورا بالقضايا الصعبة التي حان أوان حلها منذ زمن بعيد ، ودون أن تصبح أكثر استعصاء ؟
- كيف نعيد رسم مجرى الأحداث لقرون مقبلة في غير مجرياتها المنحرفة لقرون ماضية ؟
- كيف تلحق اللغة العربية باللغات الأوروبية في التعبير عما يجري من تطورات في عالمنا الحاضر؟ ولماذا لا نطوع لغتنا الفصحَى لتخدم كل مصطلحات العلم والتكنولوجيا ؟
- وكيف نعبّر بلغتنا عما يجري حولنا وما يقع في مجال خبرتنا والوعي بثورة المعلومات والتكنولوجيا المتقدمة التي أمدّت الإنسان بقدرات رهيبة تفوق قدرات الجن والشياطين في عالم الأساطير؟
- وأخيرا ، هل تلين اللغة العربية لتستوعب الجديد من المصطلحات والمعاني وتظل محتفظة بأصالتها وبجنسيتها المتميزة ؟

إن هذه التساؤلات لا تنطلق من فراغ ، فهي حقائق واضحة ، بعد أن تغير الواقع الذي كانت فيه اللغة العربية تغط في سبات إبان فترة التخلف التي دامت قرونا . وقد تبدلت الظروف وتجاوزنا مفترق الطرق ، ومضينا في طريق التقاء الحضارات . ولابد أن تنهض اللغة مع الحضارة وتعبّر عن الحياة . وسوف تسهم العلوم والفنون في إثرائها ، وتؤدي الترجمة دورا كبيرا في هذا المضمار.

ولقد طلع نهار جديد في تاريخ العرب الثقافي والفكري ، عندما أصبحت اللغة العربية من لغات العمل واللغات الرسمية الست في منظومة الأمم المتحدة . ومعروف أنه تم من قبل اختيار اللغات الخمس في الأمم المتحدة على أساس أنها أوسع اللغات انتشارا في العالم . فالانكليزية والفرنسية يتحدث بها معظم سكان القارتين

الافريقية والآسيوية بالإضافة إلى المتحدثين بهما في أوروبا، والاسبانية تتحدث بها الأغلبية الساحقة من دول أمريكا اللاتينية، كما يتحدث الصينية حوالي ربع سكان العالم داخل الصين وحدها. أما الروسية، فقد اعتمدت على أساس أن الاتحاد السوفياتي برز كدولة عظمى أثناء الحرب العالمية الثانية. وقبل انشاء الأمم المتحدة في سنة 1945، كانت دولتان أو ثلاث تسيطر على أكثر من نصف الكرة الأرضية سيطرة لغوية وثقافية وغيرها.

ومنذ إدراج اللغة العربية ضمن لغات الأمم المتحدة، أصبح واضحا أنه لابد أن ترقى اللغة العربية إلى مصاف اللغات العالمية في التعبير والاتفاقيات والمعاهدات الدبلوماسية وفي شتّى العلوم. وتساءل بعضهم عن معايير العالمية لأي لغة، وما مدى انطباق تلك المعايير على اللغة العربية ؟.

والإجابة سهلة، فمعيار عالمية اللغة يتحقق بمدى قدرة أصحابها على تطويرها لاستيعاب كل ما يستجد من أدوات الحياة المتغيرة ومعانيها وقيمها وألفاظ حضارتها، وبمدى أصالة كتّابها وعلمائها ومفكّريها في التعبير وتناول المفاهيم الانسانية الشاملة. تصير اللغة عالمية بمضمون ما يكتب بها وما يطرحه مفكروها من معان وأفكار وقيم ومفاهيم وألفاظ في شتّى فروع المعرفة الانسانية. باختصار، التعبير عن كل ما يهم الانسان، والكائنات الحية، والطبيعة، بل وما وراء الطبيعة.

وفي كل يوم ينهمر سيل من ألفاظ ومصطلحات جديدة في المجالات السياسية والعسكرية والتكنولوجية والبيئية والاقتصادية والصناعية والزراعية والصحية والفضائية والقانونية، ويواجه المترجم العربي كل هذا الفيض الجديد، ولا يجد لذلك معدلا في معاجمه العربية ولا في النشرات والمجلات التي أصدرتها مجامع اللغة العربية في القاهرة وبغداد ودمشق ومكتب تنسيق التعريب بالرباط. ما لدينا ناقص جدا إذا قورن بما يصدر في الشرق أو الغرب من معاجم ودوائر المعارف. ولأن اللغات الأوروبية متضافرة فيما بينها، يأخذ بعضها عن بعض بسهولة ويسر. تمدها اليونانية واللاتينية بما تعوزه، فيسهل عليها الاشتقاق وتخرج علينا كل يوم بجديد. وغدت اللغتان الانكليزية والفرنسية، في عصر التكنولوجيا قادرتين على التأثير والاكتساح في مجال المصطلحات. وواجه المترجمون العرب مشكلة حقيقية: استنباط اللفظ المقابل الصحيح. وكان واضحا عند هؤلاء المترجمين ضرورة البعد عن الألفاظ الدارجة أو العامية أو اللهجات أو اللغة الفصحى المتقعرة، وكذلك ضرورة توطيد الصلة بالتراث اللغوي والفكري وعدم التهوين من شأنه.

وهنا صار العبء ثقيلا حقا. غدت دوائر الترجمة في نيويورك وجنيف وباريس وبغداد وأديس أبابا وفيينا منهمكة في أعمال الترجمة، وثائق وتقارير ورسائل ودراسات في شتّى المجالات. العاملون بهذه الدوائر يتوخون، بكل دقة، نقل المعارف والعلوم، بل الفكر العالمي بكل تياراته الحضارية، إلى اللغة العربية، لاثرائها بالجديد، بما ليس في تراثها القديم، مع صيانة التراث اللغوي وسلامة اللغة العربية. وكانت هذه المسائل موضع مناقشات كثيرة. إذا اقتصر الأمر على التراث العربي، وإذا أغلق الباب أمام الاجتهاد في كل المجالات، فسوف نكون بمعزل عما يجري حولنا وبمنأى عن ركب الحضارة المعاصرة. ولا يستطيع أحد أن ينكر عامل التأثير والتأثر بين اللغات والحضارات. وكما قدم العرب من قبل للعالم كله، من علم وفكر وعطاء، صار ملكا للبشر، فإن عطاء الحضارة التكنولوجية المعاصرة لم يعد ملكا احتكاريا لأحد.

في عهود سابقة كان فقهاء اللغة ورجالها يقاومون هجمات استعمارية متنوعة، وكانت اللغة العربية تقف أمام تيار الغزو الأجنبي، سواء كان تركيا أو فرنسيا أو انكليزيا. أما الآن فقد اختلف الحال! هذه المرة لا يريد قوم فرض لغتهم على قوم آخرين. في دوائر اللغات بمنظومة الأمم المتحدة لا يوجد صراع لغوي بين سائر

اللغات الرسمية. كل لغة لابد أن تعادل الأخرى وتتكافأ معها في كل عبارة بجميع الوثائق والتقارير والدراسات والاتفاقات والمعاهدات.

كان على المترجم العربي أن يحلّق في كل آفاق المعرفة، وعليه أن يسارع إلى الاجتهاد الفوري. والابداع الفردي الذي تتطلبه الحاجة اللحظية، إنها الحاجة العاجلة كل يوم إلى إصدار وثائق شديدة التنوع بلغة عربية تتكافأ مع تلك اللغات الخمس الأخرى بمنظومة الأمم المتحدة. ليس الهدف مجرد الترجمة والنقل، أو رياضة الفكر على موضوعات ليست معروفة عند العرب. ولكن الهدف إثراء اللغة العربية لتخدم العلم والحضارة المعاصرة بمصطلحات يتداولها الباحثون والدارسون، تجنبا للبلبلة التي سادت حينا من الدهر عند بدء حركة التعريب. وبذلت في هذا السبيل جهود حميدة من دوائر الترجمة في منظومة الأمم المتحدة، بنيويورك، وجنيف، وباريس، وبغداد، وأديس أبابا. وهي حتما تقرب، في مجال المصطلحات، بين الناطقين بالضاد. لقد انطلقت هذه الدوائر ترسي قواعد عديدة بشأن ترجمة المصطلحات العلمية والتكنولوجية، وأسماء المؤتمرات والهيئات والأعلام واللجان والأفرقة والأصول التي تنقل عنها. وكان ضروريا الأخذ بالرأي وبالفكرة وبالمحتوى في ترجمة المصطلحات، وأخذ في الاعتبار رد الكلمات ذات الأصل العربي إلى أصولها.

وفي هذا المسعَى، كان الاهتمام بالاستفادة من مرونة أبواب القياس والاشتقاق. لقد بدأ المعتزلة الدعوة إلى الأخذ بمبدأ القياس في اللغة منذ ألف سنة، باعتبار أن اللغة يجب أن تكون قياسية قبل أن تكون سماعية. وكان الاهتمام بالتعريب حينما تنعدم القدرة على استنباط مصطلح مقابل. وتساءل كثير من اللغويين عن مدَى التعريب المباح، لكي تبقَى لغة الضاد بتراثها سليمة من الألفاظ الدخيلة. كانت اللغة الفصحَى منذ ألف سنة تتمثل في لغة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وروائع الشعر والنثر.

وأراد لها بعضهم أن تقف عند هذا الحد. إن اللغة، في شتَّى العصور، وسيلة لا غاية، واللغة أصدق وسيلة للتعبير عن العصر، وعن الفكر وعن مشاغل العصر والبلاغة إنما هي أداة لحسن التعبير، واتقان توصيل الفكرة إلى السامعين. ومن أسف، ساد وقت كانت البلاغة هدفا في حد ذاتها. كان الأدباء في تلك الأحقاب يتبارون في اللغة من أجل اللغة. كان هذا معناه الافلاس في الفكر والعلم. وتغير الحال الآن. لم تعد الفصحَى تقتصر على الخاصة. غدت لغة الجميع سماعا وقراءة وكتابة بعد انتشار التعليم ووسائط الاعلام والوسائل الالكترونية وآلاء التكنولوجيا المتطورة التي صارت إرثا للانسانية كلها. كان بعض اللغويين يرون أن المعيار في الألفاظ هو التمييز بين ما استعمله العرب من ألفاظ اللغة وتعابيرها أو ما أهملوه أو ما لم ينطقوا به. فهل من المعقول الآن أن نقيس اللغة العربية الفصحَى، كما ينادي بعضهم، بما استعمله العرب في البادية. كان علماء اللغة والرواة الأقدمون قد قسّموا القبائل العربية إلى قسمين اهتموا بأحدهما وأهملوا الآخر. وبنوا فكرتهم على أساس أقرب إلى البداوة والحضارة. فكلما كانت القبيلة بدوية أو أقرب إلى حياة البدو، كانت لغتها أفصح، والثقة فيها أكثر. وكلما كانت متحضرة أو أقرب إلى حياة الحضارة كانت لغتها محل شك ومثار شبهة، وكلما كانت منقطعة الصلة بالعالم الخارجي كانت لغتها أفصح وأنقَى، وكلما كانت وثيقة الصلة بالأمم المجاورة ولها علاقات من أي نوع كان مع الدول الأجنبية، كانت لغتها محل طعن وموضع ريب. وفكرتهم في هذا أن الانعزال في كبد الصحراء وعدم الاتصال بالأجناس الأجنبية يحفظ للغة نقاوتها ويصونها من أي مؤثر خارجي ينحرف بالألسنة ويدخل الضيم والوهن على اللسان والفصاحة. وكان الفارابي، مثلا، يروي في كتابه «الألفاظ والحروف» قائمة محددة بالقبائل التي يستشهدون بها وتلك التي لا يستشهدون بها.

ومع التطور، تغير الحال وتبدل. لم تعد العبرة بما استعمله العرب الأقدمون فعلا من مشتقات

ومصطلحات ، بل العبرة بما يمكن أن يستعملوه الآن . ليس المعول على ما وقع ، بل المعول على ما نحن عليه الآن ، وما يمكن أن يحظَى باجماع أهل العربية . وليس معنَى ذلك الدعوة إلى أن تحل الألفاظ الدخيلة محل الألفاظ الأصيلة في اللغة .

هذا كله لم يكن معناه اننا نبحث عن حضارة . فنحن أمة لها حضارة ولها تراث ولها شريعة . وكلها لها جذورها الضاربة في أعماق التاريخ وفي رحم الحياة ! وانما كان المطلوب تقديم حلول ناجعة لمشكلات في الترجمة ، وبناء نهج للترجمة متكامل ، لا يعرف التناقض ليرتفع الصرح شامخ البنيان . وهنا كانت أهمية اختيار المترجمين الأكفاء إلى اللغة العربية ، للقيام بأمانة النقل بين العربية وغيرها من اللغات الأخرى الواسعة الانتشار التي تحتك بها مباشرة . وعقدت مسابقات دولية عديدة لهذا الغرض ، من أجل اختيار من تتوافر فيهم صفات وقدرات ، وهو موضوع آخر قد أتناوله في مرة قادمة .

ومما لاشك فيه أن لغة العلم سوف تزدهر بنهضة البحث العلمي في العالم العربي ونقل التكنولوجيا إليه . فالحاسبات الالكترونية والاختراعات الحديثة دخلت تقريبا كل البلدان العربية ، ودخلت معها ألفاظ لا عهد للغة العربية بها من قبل . وسوف يتقبل الناس من كتّاب وأدباء وعلماء وطلاب على تداول الألفاظ والمصطلحات الحديثة ، كما حدث أن شاع الكثير منها مثل : الاستشعار من بعد والبث التلفزي والارسال البرقي المصور ؛ والتوابع الاصطناعية والتحويلات الالكترونية المصرفية ، ومصارف المعلومات ، والموارد الخارجة عن الميزانية ، وحقوق السحب الخاصة ... ونظم الاحالة إلى مصادر المعلومات ، ومصادر الطاقة الجديدة والمتجددة ، ومصطلحات نزع السلاح والعلم والتكنولوجيا والطاقة ، والفضاء ، والمختصرات . وألفاظ النسب إلى الجمع مثل أقاليمي وجرائيمي .

كانت هناك في أعمال الترجمة ضوابط كثيرة يلتزم بها المترجمون تجنبا لتمييع الألفاظ والمصطلحات الفنية الدقيقة ، ولكي يسهل ، عند الضرورة ، ردها إلى أصلها المنقول عنه . عرف المترجم العربي ألا تقعد به الذرائع عن بلوغ ضالته من اللفظ المأنوس وعرف طرائق النسخ والسلخ والمسخ والمصالتة ؛ فالسلخ أن يأخذ المترجم المعنَى دون اللفظ ، والمسخ أن يأخذ المترجم المعنَى ويغيّر بعض اللفظ ، والمصالتة أن يأخذ المعنَى ويحوله عن وجهه . أما التخرص (conjecture) والخبط (striking at random) فهما رذيلتان يتجنبهما المترجم . وعليه ، عند النقل إلى اللغة العربية ، أن يفرّق ، في التعبير ، ما بين النثر العلمي والنثر الأدبي والشعر . فلكل خصائصه في الألفاظ والعبارات والموضوع . فالأول يعبّر عن الأفكار بقدر مساو من العبارات ، رغبة في ابراز الحقائق المجردة دون مبالغة فيها ، ودون التأثير في الأذهان بالصور الخيالية والمجازات . أما النثر الأدبي أو الشعر ، فإن الأمر لا يقتصر على مدلولات الألفاظ ، إذ يتعداها إلى ما توحيه تلك المدلولات من ظلال المعاني، وما تثيره في الذهن من صور وأخيلة تؤثر على السامع أو القارئ . وتستنتج فيها الأذهان من المعاني فوق ما تحتمله تلك الألفاظ والعبارات . ولا يخفَى على أحد أن الشعر يتضافر فيه ايقاع داخلي بكل ما يمثله من خصائص فكرية وشعورية ولا شعورية ، وايقاع خارجي قادر على تجسيد ذلك العالم الداخلي وما يعتمل فيه .

وقليلون من استطاعوا أن ينقلوا شعرا إلى شعر في اللغة العربية . ويعد المترجم أمينا إذا استطاع أن ينقل الشعر إلى لغته . وعندما عرّف «فولتير» الشعر بأنه «موسيقَى النفس» ، جعل ذلك سبب ما في ترجمة الشعر من صعوبة ، إذ تضيع بالترجمة موسيقاه ، وهي جزء لا يتجزأ منه . كما أكد أحمد أمين أنه يستحيل ترجمة شعر من لغة إلى شعر في لغة أخرى ، إذ تذهب الترجمة بما للشاعر من قدرة فنية وطريقة أداء . وما يمكن ترجمته هو المعنَى الذي حواه الشعر وما فيه من تصور وخيال ، وما يحتويه من عواطف عامة . وفي كتاب «الحيوان»

للجاحظ ، قال «ان الشعر لا يستطاع أن يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حوّل تقطّع نظمه ، وبطل وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب ، لا كالكلام المنثور» .

ورغم أن بعضهم يرَى أن من خصائص اللغة العربية في تعبيراتها أن الكلمة الواحدة تحتفظ بدلالتها الشعرية المجازية ودلالتها العملية الواقعية في وقت واحد بغير لبس بين التعبيرين ، فمن الواضح أن هندسة الجملة تختلف في النثر العلمي عنها في الشعر ، أي أن تركيب المفردات أو تركيب القواعد والعبارات يختلف . وليس من المستصوب وضع أسوار حديدية تفصل ما بين الأدب والعلم . ولابدّ للغة أن تعبّر عن لطائف الفكر وعلوم العصر !

وفي كل الجهود المبذولة في دوائر الترجمة ، أرسيت بالاجتهاد أسس وقواعد غاية في الأهمية في ترجمة المصطلحات وصوغها وتعريبها ثم توحيدها . ورُوعيت كذلك القرارات التي أصدرها مجمع اللغة العربية في القاهرة تسهيلا لعمل المترجمين وواضعي المصطلحات العلمية والفنية والصناعية أوردها أدناه.. وحبذا لو تعمد دوائر الترجمة بالأمم المتحدة إلى اصدار معجم موحد تسهّل به العمل وتتدارك به النقص .